البحث عن النمر

مغامرة في جبال عُمان

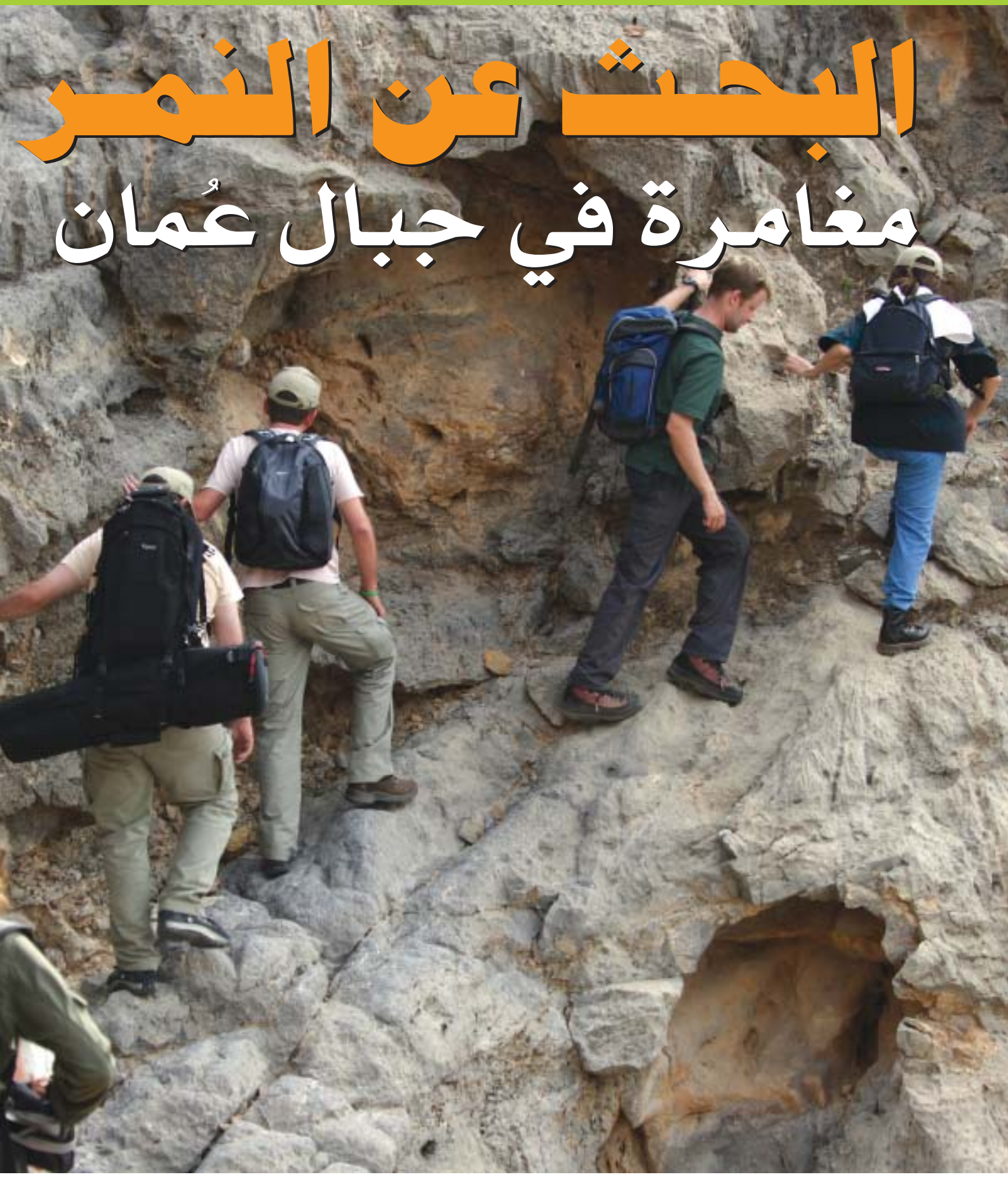

العربي

راغدة حداد (عُمان)

سمعتُ حركة خارج الخيمة، وأنفاساً تقترب ثم تبعد ثم تعود. الساعة قاربت الثانية بعد منتصف الليل، أيكون النمر خارج خيمتي؟

لم تكن تلك المرة الاولى التي أخيم فيها وسط برية. لكنني، للمرة الاولى، أرقد في أرض النمر العربي، وسط جبال مسندم في سلطنة عُمان. الجميع نيام، بعد تسلّق شاق للجبل وصولاً الى كهف النمر، وسهرة استمعنا خلالها الى أحاديث الأهالي عن الحيوانات البرية التي تعيش هناك.

الحركة الغريبة لم تسكن، والأنفاس لم تخمد، وأنا قابعة بلا حراك وقلبي يكاد يقفز من داخلي. شققت سحابة الخيمة قليلاً وسلطت ضوء مصباحي الكهربائي الى الخارج، فاذا بأحد الأوتاد قد أفلت وراحت شرفة خيمتي تتطاير مع زفير الريح.

النمر العربي كان يروم تلك الجبال. لكن صديقنا سعيد السعيد أخبرنا في السهرة أن أحداً من أبناء المنطقة لم يرَ نمراً منذ نحو خمس عشرة سنة. قال: "في الماضي كان هناك مطر، وكان العشب ينمو عالياً، والظباء كثيرة تنعم بالماء والمرعى. وكانت النمور تلزم أعالي الجبال الصخرية مكتفية بالفرائس البرية". لكن سنوات متعاقبة من الجفاف أيبست المراعي وأنضبت جبوب الماء. فنفقت الظباء، ولم تعد النمور توفق في صيد طرائدها الطبيعية، وشرعت تغير على أغنام الأهالي الذين راحوا ينصبون لها الأشراك.

وهكذا اختفت النمور العربية من جبال مسندم بين عطش وجوع وقتل. وتحولت كهوفها زرائب للمواعز التي تلوذ بالجبال شهوراً في مواسم الحر.

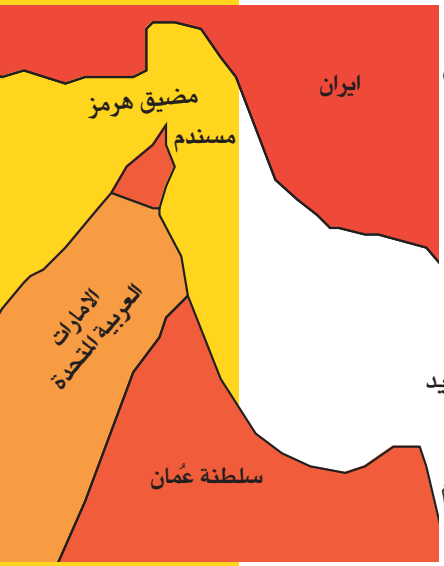

Photos:
Wouter Kingma

من ظفار الى مسندم

النمر العربي *Panthera pardus nimr* هو أكبر أنواع السنوريات الباقية في شبه الجزيرة العربية. كان في الماضي يعيش في جبال عُمان واليمن والسعودية والامارات وفلسطين والأردن. وبحلول التسعينات انقرض محلياً في معظم أنحاء المنطقة، وأدرج على اللائحة

ديوان البلاط السلطاني

سيارات الدفع الرباعي وحدها قادرة على سلوك الطريق الحصوية الوعرة في مسندم

قائدا البعثة
تيسا ماغريغور ودوم هول
داخل كهف النمر

هول يفكك
آلة التصوير الفخّية

براز يرجح أنه لنمر عربي

الحمراء للحيوانات المهددة الى حد خطير لدى الاتحاد الدولي لصون الطبيعة (IUCN).

عام 1997، بدأ مكتب مستشار حفظ البيئة في ديوان البلاط السلطاني في عُمان دراسة مسحية للنمر العربي في محمية جبل سمحان الطبيعية في اقليم ظفار، بالتعاون مع وزارة البلديات الاقليمية والبيئة وموارد المياه وبمساعدة رعيان ومرشدين محليين. فنصبت آلات تصوير فخيّة (trap cameras) في المواقع التي وجدت فيها دلائل على وجود النمر، وهي تعمل آلياً من دون تدخل الانسان، فتقوم بالتصوير عند مرور حيوان عبر حزمة الأشعة تحت الحمراء التي تبثها. وتم إمساك عدد من النمور، وتطويقها بأطواق متصلة لاسلكياً بالأقمار الاصطناعية تحتوي على نظام تحديد المواقع العالمي (GPS) من أجل تتبع تحركاتها.

لقد ثبت أن النمر العربي يعيش بحرية في محمية جبل سمحان في جنوب عُمان، حيث أوضحت تحاليل من برازه أن أهم فرائسه الوعل النوبي والوبر الصخري والغزال العربي والنيص الهندي والحجل العربي الأحمر الساقين، ولم تثبت التحاليل وجود آثار أغنام.

وكانت مسندم المنطقة العُمانية التالية التي يحتمل

البحث عن النمر العربي في الجبال الشاهقة

وجود النمر فيها. لكن الفارق هنا أن الجبال مأهولة، يسكنها نحو 30 ألف نسمة، والوضع يشبه المرتفعات الخضراء المأهولة لجبل القمر خارج منطقة جبل سمحان، حيث تأكد وجود النمر أيضاً.

يقول هادي مسلَّم الحكماني، من مكتب مستشار حفظ البيئة في ديوان البلاد السلطاني، الذي يتابع ميدانياً مشروع مسح النمر العربي في عُمان: "بعدما تحققنا من أن النمر لا يزال يستوطن جبال ظفار، علينا أن نعمل على خلق مجتمع يساهم معنا في برامج الصون، حيث أن مستقبل النمر العربي بيد الأهالي. فنشر الوعي في المجتمع المحلي من أولى الخطوات لنجاح عملية الصون البيئي".

عطلة ذات نكهة

وصلنا الى مسندم في منتصف شباط (فبراير) 2006 آتين براً من دبي فرأس الخيمة. ومسندم شبه جزيرة عُمانية تطل على مضيق هرمز، الذي يصل الخليج العربي بخليج عُمان والمحيط الهندي، تفصلها أراضي الامارات العربية المتحدة عن بقية سلطنة عُمان. جبالها الوعرة تنبثق من البحر في سلاسل شاهقة يصل ارتفاعها الى 2000 متر، تتعرّج بينها ممرات بحرية تتناثر فيها الجزر وقرى الصيادين. ولقد خيل الي، وأنا في رحلة على متن سفينة خشبية بين تلك الجبال لمشاهدة قطعان الدلافين اللعوبة التي تكثر هناك، أنني داخل متاهة عملاقة منحوتة في البحر.

انطلقنا من خَصَب، مركز محافظة مسندم على الساحل، الى الجبال في الداخل حيث تطغى الصخور الجيرية والطينية الغنية بالأحافير البحرية. فتلك الأصقاع كانت تحت البحر خلال العصر الجوراسي قبل نحو 68 مليون سنة، وارتفعت طيّاتها بفعل الزلازل حين اصطدمت الصفيحة الإيرانية بالصفيحة العربية.

كنا قافلة من سيارات الدفع الرباعي، الوحيدة القادرة أن تمخر عباب تلك الطريق الحصوية الوعرة. فقد ساهمت "لاندروفر" بدعم البعثة، وتبين ان سياراتها مثالية على هذه الطرقات، اذ تتميز بآلية لرفع الهيكل حين تسير على الحصى فيشعر راكبها، كأنها على إسفلت.

مررنا بأودية سحيقة تلوذ بها قرى صغيرة يعيش أهلها على بعض زرع يرفد تربية الأغنام. وبعد مسيرة ساعتين في تلك القفار أطل علينا المخيم. فمقصدنا بعثة علمية

كانوا في مُستندم

ضم فريق "بيوسفير إكسبيديشنز" مجموعة من الباحثين عملوا بصعوبة في ظروف بعيدة جداً عن رفاهية حياتهم العادية، مقيمين في ما يشبه مخيمات البدو المتنقلة، مع قاعدة ثابتة في خشب. وقد دفع كل منهم نفقات السفر والإقامة، إضافة الى رسم مساهمة في تكاليف البعثة العلمية. ولم يكونوا جميعهم من العلماء المتمرسين، فمنهم سياح أرادوا تمضية عطلة هادفة يتعلمون خلالها خدمة تترك أثراً

أوليفر بلوفلد، مصور تلفزيوني بريطاني يعمل في دبي: "شوّقت شريطاً وثائقياً عن جبال مسندم وسكانها وكهوف الحجر وعمليات البحث عنها".

ياسمين عزيز، أسترالية من أصل فلسطيني، طالبة ماجستير بالعلوم والسياسات البيئية في جامعة بونز هوبكنز بولاية ماريلاند الأميركية: "سمعت عن اقتصاد المنطقة القيّم شعبياً بحماية البيئة ومواردها وحيواناتها، ولحبيت أن أزور عُمان بمهمة علمية ميدانية، الأمر مكتشف في الطبيعة، حيث تعيش ما غدرمن بوقلة عُمان متقمصين وأصدقاء من دول مختلفة، فنهل من معارفهم وتعليمهم ما قدّموا".

باتس كارسفات، مدير قناوين ألماني: "تعت أسحر أن عطلاتي وأمضاري بلا منكهة، مثل طيين الشهي في الظهر تكفه بلا منح وبهار، ثم قرأت مقالاً عن بعثة بيوسفير تكشف عن الحجر العربي في مسندم، فانضممت اليها، وكانت أروع خبرة عشتها في حياتي، وقد تأثرت جداً بانفتاح العُمانيين وحفاوتهم، وسأعود بالتأكيد في بعثة لاحقة إذا سنحت".

يوتا لاوف، لندن ألمانية بالكيمياء الصناعية من ألمانيا: "شاركت في بعثات سابقة لبيوسفير، وصرت متمرسة في تقني الأثار واستخدام نظام تحديد المواقع العالمي".

روزماري ستو، مرشدة لبيئة جبلية من بريطانيا: "زرتُ عُمان مرتين من قبل، وعشقت طبيعتها الخلابة وطبيعة أهلها، وبعد تقاعدي لحبيت زيارتها بهدف جبال، وقد اكتسبت هنا مهارات أفتخر بها في العمل الميداني".

تستكشف جبال مسنم منذ شهرين للوقوف على ما اذا كان النمر العربي مازال يعيش هناك. وهذه خطوة جديدة في مساعي حماية الحياة الفطرية في عُمان وتدعيم موقعها كمقصد دولي للسياحة البيئية.

كانوا بانتظارنا، باحثون متطوعون من بلدان مختلفة، لتوافق رحلة تجمع بين العلم والمغامرة، مثل هذه الرحلات تنظمها بيوسفير إكسبيديشنز (Biosphere Expeditions)، وهي شركة بريطانية لا تتوخى الربح تنظم بعثات حول العالم لحماية الحياة الفطرية مفتوحة للجميع. وخلافاً لرحلات التصوير أو السفاري، تجمع هذه البعثات بين زيارة الأماكن القصية والنائية، والاحتكاك بشعوب وثقافات مختلفة، وصون حيوانات مهددة بالانقراض.

في كهف النمر

أقيم المخيم على سهل شبه دائري وسط الجبال كأنه غرفة بركان. من هناك انطلقنا للتسلق منحدراً صخرياً شاهقاً الى كهف كانت تزاده النمور وفق روايات الأهالي، سبع سنوات متعاقبة من الجفاف لم تترك من الفصائل الأخضر سوى شجرات متناثرة من الأكاسيا، يقضمها الماعز من أسفل الأغصان صعوداً حتى تأخذ شكل مظلة. كان التسلق خطراً، خاصة على تلك الحافات الصخرية الضيقة، كانت لتودي بصاحبها درجة الى الاسفع، بعد ثلاث ساعات وصلنا الى ممر هو أشبه بجسر لا بد من اجتيازه لبلوغ الكهف. هناك كانت رئيسة الفريق العلمي ثيسا ملفريفورد، الاختصاصية بالقطط البرية، وقائد البعثة الباحث الميداني نوح هول، قد وضعا قبل أسبوع آلة تصوير، وتبين أنها صورت ثعالبين ومواعز، لكنها لم تصور نمراً.

على الدرب الضيقة الى الكهف بقع ترابية متناثرة رحنا نبحث فيها عن آثار أقدام وبقايا افتراس، بعدما علمتنا ثيسا كيف نفرق بين آثار الحيوانات المختلفة. فالنمر العربي ليس وحده خلال التناء اذ ربما كان هناك بقية من الغلبان والنمر العربي النادر، وهي فراكس النمر، الاعالب والقنفذ والنمس والأرنب والقطط البرية وأنواع من القوارض تعيش هناك أيضاً، وكذلك الوشق الذي يدعوه الأهالي "الدموا"، ورأينا بيناً مختلف الأشكال مختلفة ملء وتتراوح من الصغير الصغيرة الى النسور الذهبية والعقبان، وذكرت الرملاوية داخل الكهوف الغائرة في الجبال.

كان الفريق العلمي يحصي الدلائل التي قد تشير الى وجود النمر، وقد عثر في تلك الاسابيع على "أدلة حسية وربما تبشر خيراً"، كما قالت ثيسا، وهي آثار أقدام وخدوش وبراز

:ةظحلم

تنبيل الانطلاق
في كهف النمر
:—

اعضاء الفريق يستعدون
في شرح قائمي البعثة
داخل الخيمة الكبيرة

عن "ة":
.. جانب من المخيم في سهل وسط الجبال
..زوجة محمد مسعد تعلف المرتى
.. ابو قاسم يروي قصص النمر، وبدا قاسم وابنه حمام وزوجته شذى

تكل على نمر، وقد أرسلت عينات البراز الى جامعة مسقط لتحليل الحمض النووي DNA الذي يكشف نوع الحيوان.

ليته يعود!

يكبرون يرون في النمر خطراً على حياة أسرهم وأغنامهم، كما كان آباؤهم وأجدادهم يفعلون، وبقاء النمر في مستنقع أنا وجد أو أعيد توطينه في المستقبل، رهن بتغيير هذا التفكير عبر تعريف الأهالي بالمنافع المادية التي يحققها لهم برنامج الصون، كتوظيفهم مرافقين للحياة الفطرية أو مرشدين للزوار والسياح المهتمين، وكذلك الأهمية المتوازنة لمنطقتهم كي يبقوا ويعيشوا حياة كريمة في أرض أجدادهم.

قال لنا قاسم للأحين زرناه في بيته: "النمور زينة للمنطقة، جميل أنا كانت موجودة، ولا أخاف على الأغنام، لأن النمر لا ينزل من الجبال، ونحن نعلمهم لغلا يقتربوا الى الشارع العام في منطقة الخمار".

قاسم شاب في العشرين يقطن في قرية الروضة التي لا يتعدى سكانها الخمسين، وهو يعمل في مكتب الولاية، وتم اختياره مرشداً سياحياً لفريق "بيرسفير"، قال حاملاً ملفقته غزلان التي لم تبلغ السنة: "سوف تذهب الى المدرسة، وبعدها الى الجامعة لتتعلم الانكليزية، من يعلم جدد تصبح غزلان مرشدة سياحية تساهم في حماية طبيعة هذه المنطقة".

وأخبرنا أبوه، وهو في الرابعة والخمسين، أنه لم يشاهد نمراً في حياته، لكن والده وجده كانا يرويان له قصصاً عن نمور تشاهد في الجبال عند الغرب والفجر، وكان الناس يتصيدون لها المشاركة، "أما اليوم فلا يفتشون لأي حيوان، فالصيد ممنوع بمرسوم سلطاني".

زرنا بيوتاً عديدة استقبلنا أصحابها بحفاوة وكرم، الحياة ما زالت هي هي منذ عشرات السنين، القطعان تخلط في النهار للرعي في السهل أو للمنحدرات الصخرية، وفي المساء تعود كل ماعزة الى زريبتها، أخبرونا أن النمور ما زالت تأكل المعزى الضالة في الجبل، ولكن لا نمور في هذه الأيام، وقال لنا أبو قاسم: "لم يعتدِ نمر على أي من أغنامنا منذ زمن بعيد، ونحن نميز فعله، فهو يعمل مثل سكين، يحلق شعر فريسته ثم يأكل لحمها، أما الحمراء فتخنق الماعز وتمتص دماءها".

وقصدنا بيت سعيد سعيد، فرأينا زوجته تطعم المعزى شعيراً، قال سعيد: "ليت النمر يعود، فهذا يحصل اذا توافر الماء والمرعى الطبيعي، لم نطعم حسناً منذ سنوات، فتفقت أغنامنا، والبقية الباقية هزيلة ويشتري لها أصحابها العلف، إن شاء الله يعمر وتخرج الجبال".

وقد أمطرت فعلاً في اليوم التالي، فغص الصباح الباكر أقفاعنا على وقع زخات خفيفة، وكانت الغيوم تخيم على السهل والجبال وتبشر بفيض كريم، وضبنا أمتعتنا وركبنا السيارات عائدين الى خصب قبل أن تقطع السيول الطريق الوحيدة، من جميل الصدف أنها كانت الطرقة الحقيقية الأولى هذا الشتاء. ■

للاطلاع على بعثات "بيرسفير": www.biosphere-expeditions.org